"دعونا نختار الحياة"

المتقدم في الكهنة الأب جورج فلوروفسكي

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

لقد أُعطيَت للنبي رؤية مجيدة. إذ أُخِذ حزقيال النبي بيد الرب إلى وادي الموت، وادي اليأس والخراب. لم يكن فيه شيء حي. لم يكن هناك شيء سوى العظام اليابسة، وكانت بالفعل جافة جداً. كان هذا كل ما تبقى من الذين كانوا في وقتٍ ما أحياءً. ذهبت الحياة.

وطُرح سؤال على النبي: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هذِهِ الْعِظَامُ؟» (حزقيال ٣:٣٧) من الواضح أن الجواب البشري على هذا السؤال هو لا. الحياة لا تعود أبداً. الميت مرة، ميت إلى الأبد. لا يمكن أن تخرج الحياة من التراب والرماد. "لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ نَمُوتَ وَنَكُونَ كَالْمَاءِ الْمُهْرَاقِ عَلَى الأَرْضِ الَّذِي لاَ يُجْمَعُ أَيْضًا." (٢ صموئيل ١٤:١٤). الموت هو النهاية التامة، إحباط كامل لآمال الإنسان وآفاقه. يأتي الموت من الخطيئة ، من السقطة الجدية. لم يكنْ عملاً إلهياً. لم يكن موت الإنسان من الترتيب الإلهي للخلق. لم يكن من العادي أو الطبيعي أن يموت الإنسان. لقد كان اغتراباً غير طبيعي عن الله صانع الإنسان وسيده، حتى الموت الجسدي، أي انفصال النفس عن الجسد. إن قابلية الموت عند الإنسان هي وصمة العار أو "أجرة" الخطيئة (رومية ٦:٢٣).

لقد فقد العديد من المسيحيين اليوم هذا المفهوم الكتابي للموت والفناء، ويعتبرون الموت بالمُجمَلِ إطلاقاً، وتحريراً لروح خالدة من عبودية الجسد. وبقدر انتشارِ هذا المفهوم للموت في الواقع، فإنه غريب تماماً عن الكتاب المقدس. في الواقع، إنه تصور يوناني وثني.[١] الموت ليس تحرراً، إنه كارثة. "أنوح وأنتحب متى تفطنّت بالموت ونظرت جمالنا المخلوق على صورة الله موضوعاً في القبور، لا صورة ولا شرف ولا منظر. فيا له من عجب! ما هذا السرّ الصائر بنا؟ كيف أُسلِمنا إلى الفساد؟ وكيف ازدوجنا بالموت؟"(القديس يوحنا الدمشقي في خدمة الجناز). لم يعد الإنسان الميت إنساناً بعد الآن. فالإنسان ليس جسداً أقل مما هو روح. الجسد والنفس متلازمان، وانفصالهما هو تحلل للكائن البشري. ما النفس التي لا جسد لها سوى شبح.

ما الجسد الذي لا نفس له إلا جثة. "لأنه ليس في الموت من يذكرك ولا في الجحيم من يعترف لك" (مزمور ٦:٥). أو مرة أخرى: "أفلعلك للأموات تصنع عجائب؟ أم الأطباء يقيمونهم فيعترفون لك؟ هل يُحدَّث في القبر برحمتك، أو في الهلاك بحقك، هل تُعرف في الظلمة عجائبك، وبرّك في أرض منسية" (مزمور ٨٨:١٠-١٢). وكان منشد المزامير على يقين تام: "هم من يدك مُقصَون" (٨٨:٥). الموت ميؤوس منه. وبالتالي فالجواب الوحيد المعقول الممكن إعطاؤه، من وجهة نظر الإنسان، للسؤال عن العظام اليابسة: لا، لن تعيش العظام اليابسة من جديد أبداً.

لكن الردّ الإلهي كان مختلفاً تماماً عن ذلك ولم يكن مجرد جواب بالكلمات، بل عملاً عظيماً من الله. حتّى كلمة الله تخلق: "لأنه قال فكان. هو أمَر فصار" (مزمور ٣٣:٩). وما يزال الله يتكلم ويعمل. يرسل روحه ويجدد وجه الأرض (مزمور ١٠٤:٣٠). روح الله مُحيٍ. [٢] لقد أُعطي النبي أن يشهد استعادة رائعة. بقوة الله، أعيد

تجميع العظام اليابسة وتوصيلها وتشكيلها وتغطيتها من جديد بلحمٍ حي، فعاد روح الحياة إلى الأجساد. ووقفت مرة أخرى بكامل قوتها "جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدًّا". عادت الحياة وغُلِب الموت.

يتماشى تفسير هذه الرؤيا مع الرؤيا نفسها. تلك العظام كانت بيت إسرائيل، شعب الله المختار. ماتت بخطاياها وارتدادها، وسقطت في الحفرة التي صنعتها بنفسها وهُزمت ورُفضت وفقدت مجدها وحريتها وقوتها. إن إسرائيل، شعب المحبة الإلهية والتبني، مع أنه شعب عنيد ومتمرد وغليظ الرقبة، يبقى مع ذلك الشعب المختار... يُصعِده الله من جب الهلاك إلى المراعي الخضراء، من طين الحمأة، من مياه كثيرة، من حفرة مرعبة ، من الطين الموحِل.

لقد تحققت النبوءة وأتى الخلاص الموعود ذات يوم. المخلّص الموعود، الفادي، المسيا، جاء في الوقت المناسب، واسمه يسوع: "لأنه سيخلص شعبه من خطاياهم" (متى ٢١:١). كان "نور استعلان للأمم، ومجداً لشعبك إسرائيل" (لوقا ٣٢:٢).

ثم حدث شيء لا يصدق متناقض. لم يتعرّف شعبه عليه ولم يقبله، رفضه وشتمه، حُكم عليه وقُتِل كنبي كاذب، لا بل حتّى كنصّاب أو "مخادع". ذاك لأن المفهوم الجسدي للخلاص الذي كان الناس يتمسكون به كان مختلفاً تماماً عما كان في مخطط الله. بدل الأمير الأرضي الجبار الذي توقعه اليهود، جاء يسوع الناصري "وديعاً ومتواضع القلب" (متى ٢٩:١١). نزل ملك السماء، ملك الملوك نفسه، ملك المجد، ولكن بهيئة خادم. لا ليحكم، بل ليخدم كل "المتعبين والثقيلي الأحمال" (متى ٢٨:١١) وليمنحهم الراحة. بدلاً من ميثاق الحرية السياسية والاستقلال، جلب لشعبه ولجميع البشر ميثاق الخلاص، إنجيل الحياة الأبدية.

لقد جلب بدلاً من التحرر السياسي الحريةَ من الخطيئة والموت وغفران الخطايا والحياة الأبدية. جاء إلى خاصته ولم "تقبلْه". لقد أخضِع للموت، حتى الموت المخزي، و "أُحصي مع الأثمة". الحياة أخضِعَت للموت. الحياة الإلهية حُكِم عليها بالإعدام من البشر - هذا هو سر الصلب.

من جديد تصرَّفَ الله. "هذَا أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّمًا بِمَشُورَةِ اللهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ، وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ. اَلَّذِي أَقَامَهُ اللهُ نَاقِضًا أَوْجَاعَ الْمَوْتِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ" (الرسول بطرس في أعمال الرسل ٢٣:٢-٢٤). خرج الحياة من القبر. المسيح قام، وخرج من قبره كختنٍ من خدره [٣]. ومعه قام الجنس البشري كله، أقيم جميع الناس بالفعل. إنه باكورة الراقدين، وَلكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي رُتْبَتِهِ" (١ كورنثوس ٢٠:١٥ و ٢٣). "حَتَّى كَمَا مَلَكَتِ الْخَطِيَّئَةُ فِي الْمَوْتِ، هكَذَا تَمْلِكُ النِّعْمَةُ بِالْبِرِّ، لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا" (رومية ٢١:٥).

تُقرأ نبوءة حزقيال في الكنيسة الأرثوذكسية في سَحَر يوم السبت العظيم، في تلك الخدمة المجيدة التي يُدعى فيها المؤمنون إلى أن ينظروا قبر الرب، ذلك القبر المقدس الإلهي الذي منه انبثقت الحياة بوفرة لكل الخليقة. [٤] بين التراتيل والنشائد الجميلة الخاصة بهذا اليوم ، التقاريظ التي هي واحدة من أثمن إبداعات شعر العبادة، يُصوّر هذا السرّ الرهيب المعبود: الحياة موضوع في القبر ومن القبر تشرق الحياة. "لأن الساكن

في العلاء قد حُسِب بين الأموات ويضيف في قبر حقير" (القانون، أرمس الأودية الثامنة). يُدعى المؤمنون إلى التأمل والتعبد عند سرّ القبر الحامل الحياة والواهب لها.

ومع ذلك، تبقى النبوءة القديمة نبوءة، أو بالأحرى نبوءة وشهادة معاً. خرجت الحياة من القبر، لكن ملء الحياة لا يزال آتياً. إن الجنس البشري، حتى المفتَدين، وحتى الكنيسة نفسها، لا يزالون في وادي ظل الموت. إن بيت إسرائيل الله الجديد يشبه إلى حد كبير العظام اليابسة. هناك القليل من الحياة الحقيقية فينا جميعاً. لا يزال المسار التاريخي للإنسان مأساوياً وغير آمن. لقد رجعنا جميعاً، في السنوات الأخيرة [٥] إلى وادي الموت. يدرك كل منا، إذ يسير على أنقاض مدن كانت مزدهرة ذات يوم، القوة الرهيبة للموت والدمار. لا يزال الإنسان ينشر الموت والخراب. قد يتوقع المرء أشياء قادمة أكثر سوءاً. لان أصل الموت هو الخطيئة. لا عجب أن هناك، في كثير من الأوساط المختلفة، فَهمٌ متزايد لخطورة الخطيئة.

يجد القول القديم للقديس أوغسطين أصداء جديدة في النفوس البشرية: (Nondum mindasti quanti ponderis sit peccatum، "أنت لا تفهم أبدًا ما هو وزن الخطيئة"). [٦] إن قوة الموت قد انكسرت حقاً. حقاً قام المسيح. "أمير الحياة الذي مات، يملك إلى الأبد". [٧] روح الله، المعزي، رازق الحياة، [٨] أُرسِل على الأرض ليختم انتصار المسيح، ويسكن في الكنيسة، منذ العنصرة. إن هبة الحياة، الحياة الحقيقية، قد أُعطيت للبشر، وهي تُعطى لهم باستمرار وبوفرة وبشكل متزايد. إنها تُقدّم، ولكن لا "يتم تلقيها" دائماً بسهولة. فمن أجل حث الخطى حقاً، على الإنسان أن يتغلب على رغباته الجسدية، "أن يطرح عنه كل الاهتمامات الدنيوية"، [٩] الكبرياء والظلم والكراهية والأنانية والرضا الذاتي، وحتى التخلي عن الذات. وإلا فإن الإنسان يطفئ الروح. يقرع الله دائماً أبواب قلوب البشر، لكن الإنسان نفسه هو مَن يفتحها!

الله لا يدخل عنوة أبداً عن طريق العنف. إنه يحترم، بحسب تعبير القديس إيريناوس ليون "ناموس حرية الإنسان القديم" [Adv. haeres.، IV، 37، 1، PG 7.1099B] الذي وضعه بنفسه. بالتأكيد، بدونه، بدون المسيح ، لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئاً. ومع ذلك، هناك شيء واحد يمكن أن يفعله الإنسان - وهو الاستجابة للدعوة الإلهية و "قبول" المسيح. وهذا ما يفشل الكثيرون في عمله.

نحن نعيش في عصر كئيب ومتوتر. الشعور بالأمن التاريخي صار مفقوداً منذ فترة طويلة. يبدو على الأرجح أن حضارتنا التقليدية قد تنهار تماماً وتسقط أجزاء. الإحساس بالاتجاه أيضاً مشوش. ما من مخرج من هذا المأزق والضائقة ما لم يحدث تغيير جذري. إلا إذا... في اللغة المسيحية تُقرأ: إلا إذا تبنا، إلا إذا طلبنا هبة التوبة... الحياة معطاة بوفرة لجميع الناس، ومع ذلك ما زلنا أمواتاً. "تُوبُوا وَارْجِعُوا عَنْ كُلِّ مَعَاصِيكُمْ، وَلاَ يَكُونُ لَكُمُ الإِثْمُ مَهْلَكَةً. اِطْرَحُوا عَنْكُمْ كُلَّ مَعَاصِيكُمُ الَّتِي عَصَيْتُمْ بِهَا، وَاعْمَلُوا لأَنْفُسِكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا وَرُوحًا جَدِيدَةً. فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ؟ لأَنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ مَنْ يَمُوتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَارْجِعُوا وَاحْيَوْا"(حزقيال ١٨:٣٠-٣٢).

هناك طريقان: "أُنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ الْيَوْمَ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْخَيْرَ، وَالْمَوْتَ وَالشَّرَّ... أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ. الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ" (تثنية٣٠:١٥و ١٩).

فلنختَر الحياة... أولاً، علينا أن نكرّس كل حياتنا لله و "نتقبّله" أو نقبله ربّاً وسيداً وحيداً لنا، وهذا ليس فقط بروح الطاعة الشكلية، بل بروح المحبة. لانه إلى كونه سيدنا هو أبونا. أن نحبه يعني أيضاً أن نخدمه، وأن نتّخذ قصده خاصاً بنا، وأن نشارك مقاصده وأهدافه. "من الآن لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيدًا، لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ، لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي" (يوحنا ١٥:١٥).

لقد ترك لنا ربّنا عمله الخاص لنتابعه وننجزه. علينا أن ندخل في روح عمله الفادي. وقد مُنِحنا القوة للقيام بذلك. لقد أُعطينا القوة لنكون أبناء الله. حتى الابن الضال لم يُسمح له أن يفقد امتياز الولادة ويُحسب من بين الأجراء (لو ١٥:٢٢-٢٤). بل وأكثر من ذلك، نحن أعضاء المسيح، في الكنيسة التي هي جسده. حياته تسكن فينا بالروح القدس.

وبالتالي، ثانياً، علينا أن نقترب من بعضنا ونبحث في كل حياتنا عن تلك الوحدة التي كانت في ذهن ربنا المبارك في يومه الأخير، قبل الآلام والصليب: ليكن الجميع واحداً - في الإيمان والمحبة، واحداً - فيه (يوحنا ١٧:٢١).

لا يزال العالم منقسماً تماماً. هناك الكثير من الخصومة والانقسام حتى بين الذين يدّعون أنهم من المسيح. السلام بين الأمم وقبل كل شيء الوحدة بين المسيحيين، هذا هو الواجب المشترك الملزم، وهذه هي أمر اليوم الأكثر إلحاحاً. وبالتأكيد فإن المصير النهائي للإنسان لا يُقرر في ساحات القتال ولا من خلال مداولات الرجال الأذكياء. إن مصير الإنسان يتقرر في قلوب البشر.

هل سوف يكون محبوساً حتى عند طرق الآب السماوي؟ أم أن الإنسان سوف ينجح في تحريره استجابة لنداء المحبة الإلهية؟

حتى في أيامنا الكئيبة هناك بوادر أمل. ليس هناك فقط "ظلمة" وقت الظهيرة (أنظر متى ٢٧:٤٥)، بل أيضاً أنوار في الليل (أنظر لوقا ٢:٨-٩). هناك بحث متزايد عن الوحدة. لكن الوحدة الحقيقية هي فقط في الحق، في ملء الحق. "كفّ شقاقات الكنائس، أخمد تشامخ الأمم. إقمع سريعاً ثورات البدع بقوة روحك القدوس" (ليتورجيا القديس باسيليوس) [١٠]. إن الحياة معطاة بوفرة.

علينا أن نراقب - لا أن نفوّت يوم افتقادِنا، لأن إسرائيل القديم كان قد فوّت افتقادَه. "كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا!" (متى ٢٣:٣٧). لنختَر الحياة بمعرفة الآب وابنه الوحيد، ربنا، بقوة الروح القدس. وبعد ذلك يتجلى مجد الصليب والقيامة في حياتنا. وسوف تتحقق النبوءة المجيدة القديمة من جديد. " هأَنَذَا أَفتَحُ قُبُورَكُمْ وأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي، وَآتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ... فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ" (حزقيال٣٧:١٢ و ١٤).

ها أنا أفتح قبورك يا شعبي وأصعدك من قبورك وأدخلك إلى أرض إسرائيل. . . ستعلم أني أنا الرب تكلمت به وقمت به ، يقول الرب (حز ٣٧:١٢ ، ١٤).

[1] For a more detailed discussion, see Georges Florovsky, ‘Redemption’, CW, III, 111–125 and ‘The “Immortality” of the Soul’ (1952), CW, III, 213–240 [Eds.].

[٢] يُطلق على الروح القدس اسم "المحيي" في كلٍ من قانون الإيمان النيقاوي وصلاة استدعاء الروح القدس التي تُقال في بداية الخِدَم في الكنيسة الأرثوذكسية (أيها الملك السماوي) [المحرر].

[٣] إن صورة المسيح البازغ من القبر كختن (عريس) من الخدر هي موضوع متكرر في الترانيم الأرثوذكسية، لا سيما في سحر الختن في الأسبوع العظيم [المحرر].

[٤] تُتلى القراءة حزقيال ٣٧: ١-١٤ في سحر يوم السبت المقدس من الأسبوع العظيم، وهو يُقام مساء الجمعة[المحرر].

[٥] أُلقيت هذه العظة في عام ١٩٥٣ ، وكانت ذكرى الحرب العالمية الثانية ما تزال حاضرة بقوة فيما كانت الحرب الكورية لا تزال مستعرة [المحرر].

[٦] هذا الاستشهاد ليس من أوغسطين بل من Cur Deus homo? (I, 21) لأنسيلم كانتربري (١٠٣٣ / ١١٠٩-٤) [المحرر].

][٧] من سلسلة Victimae paschali laudes من القرن الحادي عشر، التي تُقرأ أو تُرتّل في أحد الفصح في الطقس الغربي [المحرر].

[٨] من صلاة استدعاء الروح القدس [المحرر].

[٩] من الشاروبيكون الذي يرتّل على دخول القدسات الكبير في القداس الإلهي [المحرر]

[١٠] يتلو الكاهن هذا الجزء من الصلاة في قداس القديس باسيليوس (الذي يُقام أيام الآحاد خلال الصوم الكبير وفي عدة مناسبات أخرى في الكنيسة الأرثوذكسية)، بعد سلسلة التذكارات بعد التقدمة [المحرر].

Source: Georges Florovsky delivered this sermon while he was dean of St Vladimir’s Orthodox Theological Seminary in New York. It was originally published as an editorial in St Vladimir’s Seminary Quarterly, 1, nos. 3–4 (1953): 4–8, under the title ‘O Ye Dry Bones’ (Blane #358).